مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وصحبه أجمعين .. وبعد..

١- أهمية الدراسة:

إن تاريخ الشعوب هو مرآة حضارتها ومنبع التيارات الثقافية والفكرية فيها، وقد تناولت الكثير من الدراسات حضارات الأمم قديمها وحديثها مما كان له الأثر الواضح في حاضر الكثير من الشعوب وتقدمها وقد كان نصيب السودان في هذه الدراسات قدراً يسيراً اذ لم يتناول تغطية كافة جوانب المجتمع السوداني من المؤرخين العرب والمستشرقين وحتى من تحدثوا عنه و لم يعكس الصورة الصادقة وخاصة ما يتعلق بالمجتمع السوداني ولاسيما مجتمع كمجتمع أم درمان الذي يعتبر ملتقى الثقافات والتيارات الحضارية والعرقية الناجمة عبر ذلك خليط العديد من السلالات العرقية من السودانيين وغير السودانيين كالمصريين والسوريين والهنود والأحباش، ذلك الخليط الذي عكس الوجه المعبرعن السودان بكل تمازجه وتداخله الثقافي في بوتقه الانصهار الاجتماعي في تلك في المدينة العريقة امدرمان٠

كما هدفت دراسة أم درمان للاستدلال على أوجه الثقافة السودانية، والتي تعكس الأصالة والرؤية الواضحة لذلك المجتمع الذي يعبر عن السودان بأكمله ولكشف الغموض عن ما خفي من حقائق ومعالم وأحداث هامة لهذه المدينة العريقة ألا وهي أم درمان.

وقد جاء البحث في تمهيد وست فصول وخاتمه إلقي فيها الضوء على بعض الجوانب الهامة فيها كتاريخ ونشأة المدينة ومجتمعها من جوانب شتى اوضحت الدراسة من خلالها العديد من المحاوروالمشكلات المختلفة وايجاد الحلول المناسبة لها ولاسيما بعض المشاكل التي ارتبطت جذورها بالماضي التليد وما زالت ذات أثر في حاضر المدينة الزاهر. وقد اعتمدت في الدراسة على عدة مناهج منها التحليلي الوصفي والتاريخي ٠

وابتدات البحث بتمهيد مختصر تحدثت فيه بعض العوامل والجوانب الهامه في قيام المدينه في مراحلها المختلفه٠ ثم عرجت في الفصل الاول- على الحديث عن أمدرمان عبر تلك القرون الطويلة منذ العصور المختلفة التي ذكرتها تلك المصادر العديدة، عن أنها لم يكن لها وجود حقيقي سوي انها مكان صغيربه قليل جدا من السكان حسب ما ورد.

كما تناولت قيام أمدرمان في أوائل عهد المهدية كقلعة عسكرية بتلك المفاهيم والتي دعا إليها المهدي بعيد عما كل يتنافى مع روح الدين والبساطة التي أرادها، وبالرغم من أنها كانت مؤقتة ، وذلك لما وقفنا عليه من مصادر عدة إلا أنها كانت النواة الأولى لأمدرمان الحديثة والتي قامت ١٨٨٥م والتي سوف نتحدث فيها بالتفصيل في الفصل الثاني.

لم يكن الحديث عن نشاة المدينه فقط بل تطرقت لذكر للادارات كإدارة بيت المال في عهد الدولة المهدية والتي كانت ذات نمط إسلامي أتبعت فيه القواعد الإدارية والحسابية المتعارف عليها في البلاد الإسلامية في ضبط أعمالها. وكانت تخضع مباشرة لرأس الدولة وقد تعاقب عليها رجال أكفاء على الجيوشلكن تدخل الخليفة واخيه يعقوب كانت سبباً في عدم مقدة بيت المال على تصريف مهامه الأخرى مما ترتب على ذلك تعاقب أكثر من أمين في فترات وجيزة.

ولما جرت العادة بان توصف البنيه الاجتماعية المصاحبة للبنيه التحية للمدينة حتى يكتمل الوصف وتتضح الرؤياء من خلال ذلك فلذا فقد وصفت المدينة عندما قدم إليها من الغرب جموع الأنصار بانها "تحولت طابية أمدرمان القديمة إلى

معسكر ضخم قد يبلغ طوله إلى أكثر من ستة كيلومترات. وقد لاحظنا عدداً ضخماً من القطاطي والتي شيدت من غير عناية وأقيمت كيفما أتفق بأنها بنيت بغير تخطيط. ولما جاءت سنة ١٨٨٨م كانت أمدرمان قد توسعت بمقدار كيلومترين نحو الشمال وبلغت جبال كرري وضمت نحو ١٢٠- ١٣٠ ألف نفس جاءوا من كل أنحاء السودان وتمثلت فيهم أنماط مختلفة من البشر. وشيدت بغير عناية وكانت الشوارع ضيقة ومعرجة وغير مخططة ". والمعلوم أن أمدرمان في توسعها لم تبلغ مباينها جبال كرري بقدر ما يوحي بأن الامتداد لأمدرمان أيام الدولة المهدية كان طولياً وفي محاذاة النهر ٠

" بأن سكان أمدرمان في ذلك الوقت هم خليط من العناصر والقبائل الموجودة في السودان إضافة إلى المصريين والهنود وبعض العرب من مكة وسوريا والأغاريق وإيطاليين وترك وأثيوبيين". ولعل أكثر هذه الأجناس استمرارية في سكن أمدرمان حتى الآن هم الهنود والمصريين اللذين عرفوا " بالمسالمة" بالإضافة إلى القبائل السودانية٠

كما طرحناايضا سياسة الخليفة عبدالله الادارية وأوضحنا كيفية بسط سيطرته على السودان وسياستيه المالية ومشكلاته وكيفية سياسته في حسم المشاكل الامر الذي ترتب علية قيام نوع من التذمر العام ضد حكمه وصار عدد خصومه أكثر من عدد مؤيديه وتفككت تلك الوحدة الوطنية التي وضع بذورها الإمام المهدي تحت راية المهدية واضطر الخليفة عبدالله في أواخر عهده إلى إخلاء أقاليم كاملة في بحر الغزال ومديرية خط الاستواء.

واوضحت بان المهدية قامت كحركة تطهيرية تهدف لخلق حياة جديده نقية في المجتمع السوداني كخطوة أولى يعقبها تطهير العالم أجمع ولربط الدين بكل مناشط الحياة وتحقيق المساواة في الحقوق والواجبات الدينية كما كان الصحابة رضوان الله عليهم كما يقول المهدي أي خلق دولة[١] ثيوقراطية[٢].

ومن أهم أهداف الدولة المهدية ايضا القضاء على المشكلات الاجتماعية الكثيرة أبرزها ظاهرة التشرد الاجتماعي التي أدت إلى هجرات جماعية للسكان من المدن والقرى إل مناطق خارج نفوذ الحكم التركي بسبب كثرة الضرائب. وطرق أساليب تحصيلها ، كما واجهت ظاهرة الفقر والجوع وسط قطاع كبار السن والمقعدين والمكفوفين.

فكانت هذه الظواهر التي ورثها المجتمع السوداني وظل يعاني منها ردحاً من الزمان،

كما أن هناك وضع المرأة الاجتماعي وحقوقها ومشكلة أهل الذمة والأوربيين والأقباط وغيرهم ممن وقعوا أسرى في قبضة الدولة المهدية هذا إلى جانب تجاهل حكام العهد التركي أوربيين وقساوسة مسيحيين المشاعر الدينية للسودانيين الذين اشتهروا بالقيم والأخلاق والتقاليد والأعراف السودانية ، واعتبروا أحكام الشريعة الإسلامية مقيدة لحرية الإنسان في السودان وخاصة المرأة. والظاهر أن السودانيين نظروا إلى القوانين الوضعية التي جاء بها الحكم التركي المصري نظرة ريب

---

(١) منشورات " ج" من المهدي، ص ١٤٣.

(٢) ثيوقراطية أي دينية.

obeikandi.com

فاعتبروها موجهة ضد عقيدتهم لطمث أحكام الشريعة الإسلامية فأدى ذلك لظهور مفاسد اجتماعية كثيرة قام بها أولئك الحكام والمواطنون، ومن أبرز المفاسد التي انتشرت في المجتمع السوداني في العهد التركي الرشوة، السرقة، الاختلاس، التزييف، التزوير والظلم، والتعذيب والسخرة.

وكما اختصرت الخدمات الاجتماعية في العهد التركي في مجال التعليم والصحة على ضوء حاجيات الأجانب من أوروبيين وشوام ومصريين وأسرهم، حيث كان الحكام الأتراك غير متحمسين لتقديم خدمات صحية للسودانيين فقد تركوهم يتعاجلون بأساليبهم وطرائقهم التقليدية السابقة[1]

لهذا كله كانت هذه الأهداف والمرامي الاجتماعية التي قامت من أجلها الثورة المهدية.ومن هنا يتبين لنا أن أم درمان كوجود تاريخي ضاربة الجذور منذ عهود قديمة، أما أم درمان المدينة الحديثة فقد تم تأسيسها بظهور دولة المهدية وسقوط الخرطوم . وذلك يجعلها عاصمة البلاد ١٨٨٥م.

كما وقفناعلى مدى تنوع المباني والعمارة في أم درمان من أبنية من القش والجالوص والطوب وذلك تبعاً للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة. فقد كانت أم درمان في أيام تأسيسها الأولى تعتبر مكاناً مرموقاً ولذا نجد مبانيها كانت جلها من مواد تتناسب والبناء المؤقت، أما مباني الجالوص والطوب فقد ظهرت نتيجة الاستقرار. وقد ظهرت أنماط العمارة وهي أنماط ونماذج من عمارة بعض المناطق في السودان وذلك تتبعاً للسكان الذين نزحوا من أماكنهم مع المهدي أو من اضطرتهم العوامل الاقتصادية وأسباب الجفاف إلى الهجرة إلى أم درمان وقد تأرجح تعداد السكان في أم درمان بين الزيادة والنقصان وذلك تتبعاً للحروب والهجرات.

فقد كان السكان خيلطا من العناصر التي كونت مجتمع أم درمان، وقد كان هناك نوع من عدم الانصهار في بادىء الأمر إلا أننا نجد أخيراً أنه قد تم نوعاً من الانصهار قد تمثل في اللجهات المختلفة والعادات والتقاليد وللامتزاج العرقي بين السكان. من خلال تلك الأحياء التي قامت في أم درمان والتي كان بعضها مخصص لقبائل معينة وحرف معينة. كما أن هناك بعض الشوارع التي حملت بعض الأسماء من العهد المهدوي كشارع العرضة والهجرة والموردة.

كما نجد أن الثورة المهدية قد اهتمت بالنظام المالي في دولة المهدية كما رأينا على أسس دينية، وطورته. الأمر الذي يجعلنا نصفها بالحركة الثورية الاجتماعية الإصلاحية لاتخاذها الإسلام وسيلة لتحقيق أهدافها والسيطرة على موارد البلاد الاقتصادية وتنظيمها.

---

(١) ٢٠ دفتر صار ٢٧٨، ترجمة وثيقة تركية رقم ١١٦، من الجناب العالي الباشا الكنخرا بتاريخ ٢ جمادى الآخر، ١٢٥٤هـ/٢ ديسمبر ١٨٣٨م، دار الوثائق القومية بالقاهرة.

obeikandi.com